الزهراء

ج ٦ : م ١ — ١٥ جمادى الآخرة ١٣٤٣

الجملة القرآنية

نبهتني احدى الصحف العربية التي تصدر في أمريكا عند ما تناولت الكلام على (رسائل الأحزان) بقول جاء في بعض معانيه أني لو تركت « الجملة القرآنية» والحديث الشريف لكان ذلك أجدى علي ولملأت الدهر ثم لحطمت في أهل المذهب الجديد حَطْمةً لا يبعد في أغلب الظن أن تجعلني مذهبا وحدي

ولقد وقفت طويلا عند قولها « الجملة القرآنية » ، فظهر لي في نور هذه الكلمة ما لم أكن أراه من قبل ، حتى لكأنها (المكرسكوب) وما يَجْهر به من بعض الجرائم مما يكون خفيًا فيَسْتَعْلن ، ودقيقًا فيستعظم ، وما يكون كأنه لا شيء ومع ذلك لا تُعرف العلل الكبرى الا به

واذا أنا تركت الجملة القرآنية وعريتها وفصاحتها وسموّها وقيامها في تربية الملَكة وإرهاف المنطق وصقل الذوق مقام نشأة خالصة في أفصح قبائل العرب وردّها تاريخنا القديم الينا حتى كأننا منه ، وصِلتَنا به حتى كأنه فينا ، وحفظها لنا منطقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنطق الفصحاء من قومه حتى لكأنّ ألسنتهم هي عند التلاوة تدور في أفواهنا ، وسلائقهم هي تقيمنا على أوزانها ؛ اذا أنا

فعلت ذلك ورضيته أفتراني أتبع أسلوب الترجمة في الجملة الانجيلية .....
وأسفُ الى هذه الرطانة الأعجمية المعربة وأرتضخ تلك اللُكْنة المعوجة وأعين بنفسي على لغتي وقوميتي وأكتب كتابة تميت أجدادي في الاسلام ميتة جديدة وتنقلب كلماتي على تاريخهم كالدود يخرج من الميت ولا يأكل الا الميت ، وأنشيء على سُنَّتي المريضة نشأة من الناس يكون أبغض الاشياء عندها هو الصحيح الذي كان يجب أن يكون أحب الاشياء اليها ؟

كنت أعرف أن الكاتب البليغ المدقق الشيخ ابراهيم اليازجي لما أرادوه على تصحيح ترجمة الأناجيل رغب اليهم أن يصرّف قلمه في الترجمة وينزلها منزلتها من اللسان ويتخيّر ألفاظها ويزيل عجمتها ويخلصها من فساد التركيب وسوء التأليف ويفرغ عليها جزالة ويجعل لها حلاوة ؛ فأبوا عليه كل ذلك ومنعوه منه وأقاموه فيها بمنزلة من يُعرب آخر الكلمة فعليه أن يترك الكلمة الا آخرها ....

كنت أعرف ذلك وما فطنت يوماً الى سببه ، حتى كانت قولة « الجملة القرآنية » كالمَنْبَهة عليه فرأيت القوم قد أثمرت شجرتهم ثمرها المر وخلف من بعدهم خَلْف أضاعوا العربية بعربيتهم وأفسدوا اللغة بلغتهم ودفعوا الاقلام في أسلوب ما أدري أهو عبراني الى العربية أم عربي الى العبرانية لا يعرفون غيره ولا يطيقون سواه . وترى أحدهم يُهوي باللغة الى الارض وانه عند نفسه لطائر بها في طيارة من طراز زبلن ....

وليتهم اقتصروا على هذا في أنفسهم وأنصفوا منها بل هم يدعون الى مذهبهم ذلك ويعتدُّونه المذهب لا مَعْدِل عنه ويسمونه الجديد لا رغبة من دونه ويعتبرونه الصحيح لا يصح الا هو ؛ وكأنهم يعلم أنه ليس بصاحب لغة ولا هو مَعْنيٌّ بها ولا كان ممن يتسمون بعلومها ؛ ثم ينقلهم هذا العبث الى آراء كآراء الصغار في الأمور الكبيرة فيحاولون أن يختلقوا في اللغة فطرة جديدة غير تلك الاولى التي

وضعت عليها جبلتها واستقام بها أمرها وتحقق اعجاز الفصاحة العربية بخصائصها

ومرجع هذا البلاء كله أن عربية الجملة الانجيلية تغزو عربية الجملة القرآنية من حيث يدري أولئك أولا يدرون ، فما أشبه هذه الاساليب الركيكة في مقرها من الآداب العربية بالمرض الموروث الكامن في الجسم الصحيح يتربص غفلة أو علة أو تهاونا فيظهر فاذا هو مشغلة للصحة ثم يستشري فاذا هو مفسدة لها ثم يضرب فيتمكن فاذا هو مزاج جديد ثم اذا هو الموتُ بعدُ

على أني لا أعرف من السبب في ضعف الاساليب الكتابية ، والنزول باللغة دون منزلتها ، الا واحداً من ثلاثة : فإما مستعمرون يهدمون الامة في لغتها وآدابها لتتحول عن أساس تاريخها الذي هي امة به ولن تكون امة الا به ، واما النشأة في الادب على مثل نهج الترجمة في الجملة الانجيلية والانطباع عليها وتمويج اللسان بها ، وإما الجهل من حيث هو الجهل أو من حيث هو الضعف . فانه ليس كل كاتب يبلغ ، ولا كل من ارتهن نفسه بصناعة نبغ فيها ؛ وان هو نسب اليها ، وان عُدَّ في طبقة من أهلها . والكتابة صناعة لها أدواتها ، وفيها النمط الأعلى والاوسط وما دون ذلك

أفمن الرأي أن نعين المستعمرين على خصائصنا ومقوماتنا ، أونتخذ في اللغة أديانا شتّى ، أو نجعل قياس العلم من الجهل في بعضه والضعف عن بعضه ؛ والا فاذا بقي بعد هذه الثلاثة مما ينفسح له جانب العذر اذا نحن قلنا بمذهب جديد في اللغة ؟

أحسب اخواننا في مصر انهم كانوا يحسنون اليوم شيئا من الكتابة الفصيحة لو لم يكن في العصر الذي خلا من قبلهم أمثال السيد جمال الدين ومحمد عبده وعلي يوسف والبارودي والمويلحي وغيرهم ممن دفعوا الاستعمار عن اللغة ببلاغتهم وردوا أساليب السياسة اللغوية بأساليب الفصاحة وأشرعوا دون الميراث العربي

أقلامهم وحاطوه بألسنتهم وحفظوه بعقائدهم حتى أمنوا عليه ان ينتقص أو يمحق أو لفليقرأ هذه البلاغة الجديدة .... التي أنقلها لهم بحروفها عن صحيفة عربية اسلامية تصدر في طنجة وليتأملوا ان كان فيهم من يكتب اليوم أبلغ منها بعد نيف وأربعين سنة من الاحتلال الانجليزي ـ والاحتلال الآخر الاوربي في زيغ الطباع وفسادها ـ لولا تلك النفوس الشرقية العربية الكبيرة التي كانت في هذا السبيل كنفوس الانبياء قائمة على انها حمى للحق وشعار فيه ودعوة اليه وجهاد من دونه ؟

قالت الصحيفة وهي تبحث في تاريخ الحج وتكتب كلاما لم يبق منه معنى ولا لفظ ولا صيغة الا وردت في الكتب المختلفة بأفصح عبارة وأبلغ أسلوب بل هو من بعض دين ذلك الكاتب واقرأ ماذا قالت :

« زيارة الكعبة المعظمة فريضة على كل مسلم ومسلمة لو عندهم استطاعة صحية ومالية . ومن مناسك الحج سبع مرات طواف حول الكعبة . كل عام في المحل المقدس المذكور يجتمع 200 000 من المؤمنين والمؤمنات هم الحجاج الكرام لابسين كلهم كسوة بيضاء وسامعين الخطبة المفتي الانام في جبل عرفات وهللوا لبيك اللهم لبيك . الكعبة مبنية من طرف ابراهيم خليل الله ولكن بمرور الدهور والأزمان وبتأثير سيلان وأمطار قد خربت مراراً ولكن تصلحت من موادها القديمة واحجارها الابتدائية . وحجر الاسود موضوعة بمحلها بيد المبارك المحمدية صلى الله عليه وسلم

« نظراً للتواريخ القديمة ان ماء زمزم خرجت من ضربة قدم سيدنا اسماعيل ومن المعاني والمعالي .... زيارة بيت الله المقدس أهم المادة هي اجتماع مسلمين العالم في كل سنة في الاراضي المقدسة الحجازية بتأييد الولا والمخالصة بين عالم الاسلامي »

انتهى وأشهد ان لا اله الا الله

وأما بعد فهذه الالفاظ التي نقلناها انما تنزل من أصولها الجزلة الفصيحة منزلة أولئك الكتاب المفتونين من أصولهم فى البلاغة والرأي والتدقيق فلو خلق اللفظ من هذه الجملة انسانا لكان واحداً منهم ولو مسخ الواحد منهم لفظاً لكان كلمة منها . أفيقبل منا بعد ذلك أن نغفل عنهم أو نتسامح فى أمرهم أو نترخص في أسلوب أوقاعدة اوكلمة ؟

ألا إن الأوزان انما هى بمقاديرها فى الميزان وفاءً ونقصاً ، لا بمقاديرها فى انفسها زعماً ودعوى . فلاتزعمنّ لي أنك أنت مَن أنت وأن لغتك هي ماهي وان الرأي ما ترى والكتابة ما تكتب ، بل هلم الي ميزانك من علماء الكلام والى ميزان لغتك من اللغة والى رأيك من الحقيقة والى كتابتك من الكتابة ، وأنت بعد وقبل أيضا لا تستطيع ان تهجم على علم من العلوم فتقول فيه قولا الا على قياس من العلم نفسه تردُّ اليه قولك وتقيم به حجتك ثم لايقبل قولك مع هذا ولا بعد قولا حتى تكون من أهل هذا العلم وممن لا يسوه وقتلوا مسائله درساً وبحثاً ، وأنت كذلك إذا عرضت لك مسئلة فى فن من الفنون رجعت الى كتبها والى أهلها فتفتشت أقوالهم قبل ان تقول شيئاً وعرفت حكمهم قبل ان تحكم بشيء واتقيت الخطأ بصوابهم وتحاميت التقصير باجتهادهم ، ثم ماهو الا أن تنزل على رأيهم فى العلم والفن ، لاتحاول مكراً ولا تتكل على خداع من الرأى ولا تتعلل بعذر من العذر . فليت شعرى لِمَ يكون ذلك منك فى كل علم وفى كل فن ولا يكون كذلك فى اللغة وأصولها والكتابة وأساليبها والبلاغة ومذاهبها ؟

ثم ما هي اللغة ؟ أفرأيت قط شعباً خلق من الدفار وقامت عليه حكومة من المجلدات وتملك فيها مَلِك من المعجمات الضخمة . . . أم اللغة هي أنت وأنا ونحن وهو وهي وهم وهن . فاذا أهملناها ولم نأخذ بها على حقها ولم نحسن القيام عليها

وجئت أنت تقول هـذا الاسلوب لا أسيغه فما هو من اللغة ويقول غيرك وهذا لا أطيقه فما هو منها وتقول الاخرى وانا امرأة أكتب كتابة أنثى... وانسحبنا على هذا نقول بالرأي ونستريح الى العجز ونحتج بالضعف ويتخذ كل منا ضعفه أو هواه مقياساً يحدُّ به علم اللغة في أصله وفرعه ، فماذا عسى أن تكون لغتنا هذه وما عسى أن يبقى منها وأين تكون نهايتها . ثم أيُّ علم من العلوم يصلح على مثل هذا أو يستقيم عليه . وفيم تكون المجاذبة والمدافعة ويم يقوم المراء والجدال اذا اتفقنا على أن بعض الجهل لا يمكن أن يكون قاعدة في بعض العلم ؟

ان هذه العربية بيت على أصل سحري يجعل شبابها خالداً عليها فلا تهرم ولا تموت لأنها أعدت من الازل فلكا دائراً للنيرين الأرضيين العظميين : كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع . وأنا أتحدى كل أصحابنا الذين أشرت اليهم أن يأتوني بكاتب واحد تنقل في منازل البلاغة واطلق أساليب الكتابة العالية ثم نزل عنها الى الركاكة أو المذهب الجديد أو ماشئت من الاسماء ولزمها مذهباً وجعلها طريقة . وهذا التاريخ بين أيديهم وبعضهم بين أيدي بعض فليأتوني بمثل واحد أُسلم لهم كل مافي يدي من الادلة على سخفهم واجعل واحدهم هذا بألف من عندي

فأما أن لا تقدر يا أبا خالد وتزعم العفة ، وتعجز ثم تجنح الى الرأي ، وتضعف ثم تتمدح بالسلامة ؛ فهذه أساليب ابتدعها من قبلك نعلب من أذكياء الثعالب .. وزعموا أنه اقتصر على القول بأن العنقود حامض . وأراه ما اقتصر على ذلك الا لأن زمنه كان أحسن من زمننا وأقرب الى الصدق . . فلو هو كان من ثعالبنا لزعم أنه ابتاع زجاجة من الخل وصبها بيده في حبات العنقود الحلو . . .

وكيف تريد ممن عجز عن الفصيح أن يثني عليه وهو لو أثنى عليه لطولب

به ولو طواب به لبان عجزه وقصوره ولو ظهر الناس منه على العجز والقصور لما عدوه في شيء ولذهب عندهم قليل ما لا يحسنه بالكثير الذي يحسنه

لقد سألت بعضهم ما هو هذا الجديد الذي تحاولون عنه ؟ قال هو ما يكتب به في الصحف . قلت فان فيما يكتب به الضعيف والساقط والمرذول وما هو الى الجزالة والفصاحة وما يلتحق بجيد الكلام ، فأي هذه تريد ؟ وأيها ليس قياساً من أصله العربي المعروف ، أفتجعلون النقص مذهباً من كماله ثم لا تكتفون بخطأ واحد فتدّعون ان الكمال في نفسه يجب أن يعد مذهباً من النقص ؟ أم الجديد هو ما يُكتب به في الصحف يعني لأنك أنت تكتب في الصحف . . ؟

اننا لا ندفع أسلوبهم فهو على كل حال خير من العامية . ولسنا نقول ان كل الناس يجب أن يخاطبوا في كل أمور دنياهم ودينهم من فوق المآذن . ولكن الخلاف بيننا وبين هؤلاء جميعاً ينحصر في أمر واحد هو تفسير لكل فروعه ؛ وذلك أن هؤلاء الكتاب لا يريدون أبداً أن تسمي الغلطة باسمها . . .

مصطفى صادق الرافعي

﴿ الزهراء ﴾ ان الذين عُنوا بنقل العهدين القديم والجديد الى العربية زمن الدولة العباسية كانوا يختارون لترجمتهما اقلاماً بليغة تُلبس معانيهما ديباجة من القول تليق باسفار يُكثر سواد الناس من تلاوتها ؛ فتنطبع في ذاكرتهم اساليبها ، وتتربّى ألسنتهم على ملكتها . ولو كان للذين تولّوا هذا الامر في القرنين الاخيرين مثل غيرة العلامة البازجي على هذه الاسفار لكان لهم مثل رغبته في تخيّر ألفاظها ووشي ديباجتها . وهذا ما تمناه المنشيء البليغ والشاعر الكبير السيد مصطفى صادق الرافعي ، ورفع صوته بالشكوى — في هذا المقال — من نتائج عدول القوم عنه وتفريطهم فيه . ولا ريب أن من الميسور استدراك ذلك لو شاءوا